@Tafsircenter

نيل روبنسون
Neal Robinson

بنية وتفسير سورة المؤمنون

ترجمة: أمنية أبو بكر

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بـ(نيل روبنسون):

نيل روبنسون Neal Robinson (١٩٤٨-)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة ليدز، من أشهر أعلام الاتجاه السانكروني (التزامني) في قراءة القرآن.

ومن أشهر كتبه في هذا السياق كتاب:

Discovering the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text

اكتشاف القرآن؛ قراءة معاصرة لنصّ مقنع، ١٩٩٦.

والذي درس فيه تركيب عدد من السور القرآنية المكية والمدنية، كما حاول فيه التأسيس نظريًّا لفكرة القراءة التزامنية للنصّ، والحجاج حولها.

له أيضًا عدد من الكتب حول الإسلام، منها:

- Christ in Islam and Christianity.

المسيح بين الإسلام والمسيحية، ١٩٩٠.

- Islam, a Concise Introduction

الإسلام، مقدمة موجزة، ١٩٩٩.

مقدمة[١]:

يعدُّ نيل روبنسون أحد الأسماء المهمّة ضمن أعلام الاتجاه التزامني لقراءة القرآن، وهذا بالأساس من خلال كتابه: (اكتشاف القرآن، قراءة معاصرة في نصّ مقنع)[٢] والصادر عام ١٩٩٦، والذي درس فيه فكرة القراءة التزامنية للنصّ نظريًّا ثم طبقها على سور مكية ومدنية، منها سورة البقرة الأكثر طولًا، وفصل فيها عناصر تماسك السور الأسلوبية والعلاقة بينها وكذا العلاقة بين هذه العناصر وبين مضمون السور.

وكما كان أحد المنطلقات الأساسية لاشتغال روبنسون في كتابه المشار إليه هو كتاب أنجيليكا نويفرت (دراسات في تركيب السور المكية) الصادر بالألمانية عام ١٩٨١، فلهذا الكتاب حضوره أيضًا هاهنا في اشتغال روبنسون في هذه الورقة العلمية على أحد السور المكية الطويلة، وهي سورة المؤمنون، الواقعة -وفق تقسيم نولدكه المعتمد من قِبَل نويفرت وروبنسون- في سور المرحلة المكية الوسطى، حيث تنطلق هذه الورقة من الاختلاف مع نويفرت

(١) قام بكتابة المقدمة وكذا التعريف بالأعلام الواردة في نصّ الترجمة مسؤولو قسم الترجمات بموقع تفسير، وقد كانت حواشي المؤلف موضوعة في آخر الدراسة، لكنّا آثرنا تضمينها في الدراسة تيسيرًا على القارئ، وقد ميّزنا حواشينا عن حواشي روبنسون بأن نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات).

(٢) هذا التعريب هو التعريب الذي وضعته الباحثة سلوى العوّا للكتاب في مقالها حوله في مجلة الدراسات القرآنية، الجزء ٣، رقم ١، ٢٠٠١. (قسم الترجمات).

حول بنية هذه السورة وتقسيمها، يبرز روبنسون اعتراضاته على تقسيم نويفرت للسورة مستندًا لبعض المعايير؛ مثل التناسب في الطول، ومثل موضع الآيات المفتتحة لكلّ قسم من السورة، ويقترح في مقابل تقسيمها تقسيمًا آخر.

يعتمد روبنسون في اشتغاله على سورة المؤمنون على عددٍ من المفاهيم المستمدة من مناهج دراسة النصوص الأدبية، ومناهج دراسات الكتاب المقدّس؛ مثل: اللوحة الأولية والنهائية، والتقويس، والتقابل العكسي. ويحاول عبر توظيف هذه المفاهيم اكتشاف بنية السورة والتقسيم الأنسب لها، كما أن الكاتب يستخدم مفهوم الظاهرة الشفاهية- السمعية حتى يمكنه من تطوير النظر في مسألة تناسب أقسام السورة باستدعاء عملية تلاوة النصّ شفهيًّا كأحد عناصر بنيته، وهي نظرة مهمّة ولافتة تستحضر بُعدًا غائبًا عن كثير من محاولات القراءة التزامنية للقرآن.

هذه الورقة مادة تطبيقية تبرز أحد التطبيقات المنهجية المفصّلة على أحد السور القرآنية، مما يجعلها نافذة مناسبة للاطلاع على الاشتغال المنهجي التطبيقي للاتجاه التزامني في قراءة القرآن، والنتاج المنبثق عنه الكاشف عن التناسب والنظام داخل سور القرآن، ومن هنا تأتي أهمية تضمينها هذا الملف: (ملف الاتجاه السانكروني).

الدراسة[١][٢]

إنّ *السور* الثماني والأربعين التي أرجعها نولدكه Noldeke[٣] إلى المرحلة المكية الأولى تشكّل مجموعة متجانسة نسبيًّا مع بعضها بعضًا من جهة البنية[٤]، وهذا صحيح بغضّ النظر عمّا إذا كانت تلك السور بالفعل من وحي المرحلة المكيّة المبكّرة أو لم تكن كما يقترح نولدكه. أغلب هذه السور تتضمّن قسمًا

(١) قدمتُ مسوّدة أولى من هذه الورقة البحثية في مؤتمر (القرآن: نصًّا وتفسيرًا) المعقود في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية SOAS بجامعة لندن، ويومي ١٨–١٩ من أكتوبر ١٩٩٩. وأنا مدينٌ بالفضل لأنجيليكا نويفرت وألفورد ت.ولش وغيرهما؛ لتعليقاتهم المثمرة المقدّمة في هذه المناسبة.

(٢) ترجَم هذه الدراسة: أمنية أبو بكر، مترجِمةٌ لها عدد من الترجمات المنشورة على عددٍ من المواقع.

(٣) تيودور نولدكه (١٨٣٦–١٩٣٠)، شيخ المستشرقين الألمان كما يصفه عبد الرحمن بدوي، درس عددًا من اللغات السامية: العربية، والعبرية، والسيريانية، وآرامية الكتاب المقدّس، ثم درس –وهو طالب في الجامعة– الفارسية والتركية، وفي العشرين من عمره حصل على الدكتوراه عن دراسته حول «تاريخ القرآن»، وهي الدراسة التي قضى عمره في تطويرها، وقد صدر الجزء الأول من «تاريخ القرآن» في ١٩٠٩، وعمل عليه مع نولدكه تلميذه شفالي، ثم صدر الجزء الثاني عن تحرير تلميذه فيشر عام ١٩٢٠، وصدر الجزء الثالث عام ١٩٣٧ عبر تحرير تلميذه برجستراسر ثم برتزل. كذلك درس نولدكه «المشنا» وتفاسير الكتاب المقدّس أثناء عمله معيدًا في جامعة جيتنجن، له إلى جانب كتابه الشهير «تاريخ القرآن» كتب حول اللغات السامية، منها: «في نحو العربية الفصحى»، و«أبحاث عن علم اللغات السامية»، عمل أستاذًا في جامعة كيل ثم جامعة اشتراسبورج، كتابه «تاريخ القرآن» مترجم للعربية، حيث ترجمه: جورج تامر، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨. (قسم الترجمات).

(٤) نولدكه T. Noldeke وشفالي F. Schwally في كتاب تاريخ القرآن Geschichte des Qorans, (Leipzig: Dieterich'sche Verlagsbuchhandlung, ١٩٠٩) pp. ٧٤-١١٧.

منفصلًا أو أكثر، ويُكرَّس كلّ منها لواحد من الموضوعات الآتية: الجدل، الإيمان بالآخرة eschatology، دلائل عظمة الله ولطفه، قصص الأنبياء السابقين، وضعية الوحي بالرسالة، التواصل الخاصّ مع النبي[١]. وليس هكذا الحال بالنسبة إلى السور الاثنتين والأربعين في المرحلتين المكيتين الثانية والثالثة وفقًا لتصنيف نولدكه. فالبنية الخاصّة بهذه السور أكثر إرباكًا؛ إِذْ برغم وجود الموضوعات الستّة الأساسية نفسها إلا أنه يصعب هنا فصلها عن بعضها بعضًا. ومع ذلك فيظهر أن ١٣ سورة (٨ سور من المرحلة المكية الثانية و٥ من المرحلة المكية الثالثة) لها تركيب ثلاثي؛ حيث لكلّ منها مقطع سردي مطوّل واقع بين مقطعين (البداية) و(الخاتمة)، وهذه المقاطع تعرض موضوعات مختلفة[٢]. وجادلتُ نويفرت Neuwirth[٣] في دراستها الرائدة حول تركيب

---

(١) راجع دراسات في نظم السور المكية Studien zur Komposition der mekkanischen Suren لأنجيليكا نويفرت، ص١٧٩: ٢٣٧ (طبعة برلين: ١٩٨١ De Gruyter). وكتاب اكتشاف القرآن: قراءة معاصرة لنصّ مقنع (لندن: طبعة ١٩٩٦ SCM) Discovering the Qur' an: A Contemporary Approach to a Veiled Text ص٩٩: ١٤٦. المستثنيات الوحيدة هنا هي سور: ١ و١٠٩ و١١٢ و١١٣ و١١٤.

(٢) روبنسون واكتشاف القرآن، ص١٤٨: ١٥٠.

(٣) أنجيليكا نويفرت (١٩٤٣-) من أشهر الباحثين الألمان والأوروبيين المعاصرين في الدراسات القرآنية والإسلامية. أستاذ الدراسات السامية والعربية في جامعة برلين الحرّة، درست الدراسات السامية والعربية والفيلولوجي في جامعات برلين وميونيخ وطهران، عملت كأستاذ ومحاضر في عدد من =

السور المكية[١]، أن التحليل الدقيق لسور أخرى (مكية وسطى) و(مكية متأخرة) يثبت أنها كذلك ذات تركيب ثلاثي[٢]. وقد جادلتُ في مكان آخر بأنّ هذا تبسيط مبالغ فيه[٣]. وفي هذه الورقة البحثية، أعتزم أن أتقدم خطوة بهذا

=

الجامعات، مثل: برلين وميونيخ وبامبرغ، كما عملت كأستاذة زائرة في بعض الجامعات، مثل: جامعة عمان بالأردن، وجامعة عين شمس بالقاهرة.

ولها عدد من الكتابات والدراسات المهمّة في مجال القرآن ودراساته، من أهمها:

- القرآن كنصّ من العصور القديمة المتأخرة، مقاربة أوروبية، ٢٠١٠.
- دراسات حول تركيب السور المكية، ١٩٨١.
- النصّ المقدّس، الشعر، وصناعة المجتمع: قراءة القرآن كنصّ أدبي، ٢٠١٤.

وقد نشرنا ثلاث ترجمات لأنجيليكا نويفرت بعنوان: الدراسات القرآنية والفيلولوجي التاريخي النقدي، ترجمة: محمد عبد الفتاح، ووجهان للقرآن: القرآن والمصحف، ترجمة: حسام صبري، وعرض كتاب القرآن والكتاب المقدّس كنصّ ضمني له، ترجمة: أمنية أبو بكر، يمكن مطالعتهم على قسم الترجمات. (قسم الترجمات).

(١) الإشارة هنا إلى كتاب "***Studien zur Komposition der mekkanischen Suren***"، دراسات في تركيب السور المكية، لأنجيليكا نويفرت، وسننشر لاحقًا عرضًا مترجمًا لهذا الكتاب ضمن هذا الملف (ملف الاتجاه السانكروني)، كتبته تارنيه ويلكنسون، ترجمة: أمنية أبو بكر. (قسم الترجمات).

(٢) نويفرت، الدراسات، ص٢٣٨: ٣٢١.

(٣) روبنسون، اكتشاف القرآن، ص١٥٢: ١٥٤ و١٨٨: ١٩٥. لتحليل مبدئي للسور: ٦٧ و٧٢ و١٧. وتهتم نويفرت الآن بمعرفة الوضعية الاجتماعية Sitz im Leben الليتورجية لمختلف أنواع السور أكثر من اهتمامها بالهيكل الدقيق لها. راجع مقالتها:

See her recent article, 'Vom Rezitationtext uber die Liturgie zum Kanon: Zu Entstehung und Wiederauflosung der Surenkomposition im Verlauf der

=

النقاش عن طريق فحص السورة الثالثة والعشرين، وهي إحدى السور (المكية الوسطى)، المعروفة باسم *سورة المؤمنون*.

يظهر في السور الثلاث التي يتضح فيها التركيب الثلاثي بشكل أكبر ما تدعوه نويفرت بالنظم الحلقي *Ringkomposition*، حيث يكرّر القسم الثالث للسورة الموضوعات (الموتيفات) المطروحة في القسم الأول منها. ورغم أنها أشارت إلى أنّ الحال ليس كذلك بالنسبة إلى السورة المذكورة؛ فإنها تكشف صلة بين مجموعة من فضائل المؤمنين المذكورة في الآيات [من ١ إلى ١١] وبين ما تصفه بالـ(تسبيحات) في الآيات [من ٧٨ إلى ٨٠]. فهي تلاحظ أن كلّ واحدة من مجموعتي *الآيات* هذه تتشكّل أساسًا من العبارات المستهلة بـ*(الَّذِينَ والَّذِي)* تباعًا، ولكن بينما تمجد إحداهما {الْمُؤْمِنُونَ}، فإن الأخرى تمجد (الخالِق)[١]. وعلى هذا الأساس تقترح نويفرت أن تكون الآيات ٧٨-٨٠ مؤشِّرَ بدايةِ القسم الثالث من السورة. والتركيب التي تقدمه نويفرت للسورة كلها هو كما يأتي[٢]:

=

Entwicklung eines islamischen Kultus', in S. Wild, (ed.), The Qur' an as Text, (Leiden: E. J. Brill, ١٩٩٦) pp. ٦٩-١٠٥.

(١) نويفرت والدراسات، ص٢٤٦f.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٢. تشير نويفرت في النسخة الألمانية الأصلية إلى عددٍ من الآيات في كلّ جزء وكلّ قسم وكلّ قسم فرعي.

١. مقدمة:

١-١١ قائمة الفضائل.

٢. أ- *آيات:*

١٢-١٦ خلقُ الإنسان دليل على القدرة على البعث.

١٧-٢٢ خلقُ السماوات والماء والإنبات وشجرة طور سيناء والأنعام *والفُلك*.

ب- قصص الأنبياء:

٢٣-٣٠ نوح وخَلاصه في *الفلك*.

٣١-٤١ رسول لم يُذكر اسمه.

٤٢-٤٤ رسل يَظهرون من وقت لآخر على فترات منتظمة.

٤٥-٤٩ موسى وهارون.

٥٠ *ابن مريم*.

٥١-٥٣ مخاطبة الرسل: الشقاق الحاصل داخل الأمم.

جـ- العظة والجدل:

٥٤-٥٦ عظة للنبي وطرح سؤال استنكاري بشأن الحرص على الخيرات.

٥٧-٦١ بيان بالفضائل: حول أصحاب الفضائل المعنيّين المسارعين للخيرات.

٦٢-٦٣ إحصاء الأعمال في *الكتاب*.

٦٤-٦٧ الغفلة عن الحساب، والعقاب.

٦٨-٧١ الرجوع إلى الأسئلة الجدالية، التلاشي في سياق الجدل الحالي.

٧٢-٧٧ مهمّة النبي، التحذير، إعلان عقاب الكافرين.

٣. مقاطع تسبيحية، الوعيد بالحساب، الإيمان بوحدانية الله:

٧٨-٨٠ الثناء على الله، شمول *الآيات*.

٨١-٨٣ استشهاد الكفار بآبائهم لإنكار البعث.

٨٤-٨٩ تساؤلات عمّن بيده الملك والسلطان وإجابتها: الله.

٩٠-٩٢ وحدانية الله.

٩٣-٩٨ أدعية موصى بها، عظة، صيغة دعاء مستحسن.

٩٩-١٠٤ ميقات موت الكافرين، الندم، *اليوم*، الموازين.

١٠٥-١٠٨ رفض التوبة.

١٠٩-١١١ تذكير الكافرين وقت الحساب بسخريتهم من المؤمنين.

١١٢-١١٥ سؤالهم كم لبثوا بين الموت والبعث، *الخلق بالحق*.

١١٦-١١٨ تمجيد الله مَلِكًا حقًّا، الوعيد لمن اتخذ إلهًا غير الله، دعاء موصى به.

توجد بضع نقاط ضعفٍ في تحليل نويفرت تتمثل فيما يأتي:

١. هنالك عدم توازن بين الطول النسبي لما عرّفته بالقسمين الأول والثالث؛ إِذْ يتألّف المقطع الأول من ١١ آية فقط، بينما الثالث يتألّف من ٤٢ آية[١].

٢. في الواقع بإمكاننا القول بأن الآية التي يستهلّ بها القسم الثاني (ج) من تقسيم نويفرت للسورة -آية ٥٤- تمثّل نقطة التحوّل إلى القسم الثالث بطريقة أوضح من الآية ٧٨ التي أشارت إليها نويفرت على أنها الآية الافتتاحية لهذا القسم؛ ففي الآية ٥٤ يخاطِب المتحدِّث الضمني (الله) مُخاطَبًا مميَّزًا (محمدًا) بصيغة المفرد قائلًا: {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}[٢]؛ ولأن سلسلة الأقسام الفرعية المنفصلة تفسح مجالًا لخطاب ذي بنية أقلّ وضوحًا.

(١) لم أستطع فهم كيف لملاحظتها بأن العدد النهائي للآيات في ٢ أ و٢ب يكون ٤٢ آية أن تعوض عن هذا (عن عدم تساوي الطولين) بأيّ طريقة كانت.

(٢) ما لم ينصّ على خلاف ذلك، فالمقتطفات القرآنية هي من ترجمتي للنصّ القياسي المصري.

٣. المناظر في البنية لـ(البيان بالفضائل) في الآيات ١-١١، لا يتمثل في الآيات ٧٨-٨٠، بل في الآيات ٥٤-٦٣ التي جوهرها مجموعة أخرى من الفضائل[١].

٤. بناءً على قوله: {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} و{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، يجب أن تُصنّف الآيات من ٧٨ إلى ٨٠ دلالات على جدل مع الغائب[٢]، بدلًا من تصنيفها مقطعًا تسبيحيًّا.

٥. إذا كان ذلك يشير إلى الجدل الذي يميز بداية القسم الثالث، فينبغي توقع أن يأتي ذلك مسبوقًا بثغرة، ولكن ليس كذلك الحال. يتساءل فخر الدين الرازي قائلًا: «العطف لا يحسن إلّا مع المجانسة؛ فأيّ مناسبة بين قوله: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} وبين ما قبله؟».

ثم يقدّم الرازي جوابًا معقولًا: «كأنه -سبحانه وتعالى- لما بيّن مبالغة أولئك الكفار في الإعراض عن سماع الأدلة ورؤية العِبر والتأمّل في الحقائق قال للمؤمنين: وهو الذي أعطاكم هذه الأشياء ووقفكم عليها؛ تنبيهًا على أن من لم

(١) تندر قوائم الصفات الأصيلة نوعًا ما إذا ميزناها عن التعريفات الموجزة. فنراها في السور: ٢:٢-٥ و١٣٤:٣-٦ و٢:٨-٤ و٧٤:٨ و١٨:٩ و٢٢:١٣ و٧٢:٢٥-٧٥ و٣:٣١-٥ و١٥:٤٩ و٣٢:٧٠-٥ و١٧:٩٠-١٨. لاحظ على وجه التخصيص التشابه بين كلّ من: ٢٣: ١-١٠ إلى ٢: ٢-٥ و٣١: ٣-٥؛ تظهر المقاطع الثلاثة عند مفتتح السور الواقعة بها، أو بالقرب منه. وتتضمن جميعًا الجذر: فلح.

(٢) راجع روبنسون، اكتشاف القرآن، ص١١٠: ١١٢.

يستعمل هذه الأعضاء فيما خُلِقَت له فهو في منزلة عادمها، كما قال تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ}[الأحقاف: ٢٦]؛ تنبيهًا على أن حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس إلّا من الله»[(١)].

ودعمًا لتفسير الرازي، لاحظ أن الإشارات إلى دعوة الكافرين للاستقامة (آية ٧٣)، وإلى ضلالهم عميانًا (آية ٧٥)، وإلى امتناعهم عن الاستكانة إلى الله -إذلالًا لأنفسهم- (آية ٧٦)، تتوافق مع (السمع والأبصار والأفئدة) على التوالي.

٦. برغم أن تقسيم نويفرت للسورة إلى أقسام فرعية كان معتمدًا في معظمه على معايير منهجية سليمة، فهنالك خطر من فهم السورة كلوحة فسيفسائية من مقاطع غير مترابطة ما لم يُولَ اهتمامٌ بالعوامل الأخرى التي تمنح السورة تماسكًا. وبناءً على ذلك يوجد مبرر كافٍ لإعادة النظر في بنية السورة.

(١) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (٨ مجلدات، طبعة بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨/ ١٩٧٨)، المجلد السادس، ص٢٠٤، والاقتباس هنا من الأصل العربي. (المترجمة).

مخطط بالمقترح الجديد:

مفتتح: الآية ١-١٠.

لوحة أولية: الآيات ١-١١.

القسم الأول: بداية من خلق الإنسان وصولًا إلى التحزّب الديني الحادث فيما بينهم، الآيات ١٢-٥٣.

المفصل المركزي: الآيات ٥٤-٦٣.

القسم الثاني: الجدل الحالي والحساب الوشيك، الآيات ٦٤-١٠٨.

لوحة نهائية: الآيات ١٠٩-١١٨.

خاتمة: ١١٧د[١]-١١٨.

تلك البنية المقترحة شبه متناظرة؛ فالسورة تتكوّن من قسمين رئيسين: القسم الأول (٤٢ آية)، والقسم الثاني (٤٥ آية). ولكن بينما يحتوي القسم الأول على قدرٍ كبيرٍ من السرد المُرَتَّب ترتيبًا تعاقبيًّا، فإنّ القسم الثاني أكثر تشظِّيًا؛ لذلك يمكن أن يوصف بأنه (مفرغ) إلى حدٍّ ما[٢]. والقسمان مؤطّران بلوحة أولية من

(١) يشير حرف (د) هاهنا إلى الفاصل الرابع والأخير في هذه الآية الطويلة.

(٢) أنا مدين باختيار هذا المصطلح لماثياس زانيسر Mathias Zahniser. وتظهر في الحديث حول السور الأخرى.

(١١ آية) ولوحة نهائية من (١٠ آيات) ومربوطان بالمفصل المركزي المؤلَّف من (١٠ آيات). وفي حين أن هنالك بين اللوحة الأولية والمفصل المركزي بنية معقدة من (التقابل العكسي)، فإنّ اللوحة النهائية تبدو مفرغة لتكون مجرد تخطيط للحدود بتقنية الـ(التقويس). وعندما يُنظر للقرآن كظاهرة شفاهية-سمعية، فإنّ الفرق في طول كلّ من القسم الأول والثاني سيكون أقلّ ظهورًا منه في النسخة المصرية القياسية. ويرجع ذلك إلى أننا إن أحصينا القوافي الداخلية في الآية ٣٣ {تَأْكُلُونَ} والآية ٤٥ {هَارُونَ}، سنجد أنّ القسم الأول به ٤٤ عبارة مقفّاة[١]. علاوة على ذلك فإننا إذا أخذنا القافية الداخلية في الآية ١٠٩ {يَقُولُونَ} بعين الاعتبار، سيكون للّوحة الأولية واللوحة النهائية نفس الطول[٢].

كذلك يساعد النظر إلى القرآن كظاهرة شفاهية-سمعية في تفسير الازدواج في تركيب البسملة؛ لأننا إذا تحدثنا بدقّة، فالبسملة ليست جزءًا من السورة،

(١) يتبع ترقيم الآيات في الطبعة المصرية القياسية النظام الكوفي. ووفقًا للطبرسي في «مجمع البيان في تفسير القرآن» (مؤلف من ٥ مجلدات، قم. دار المعرفة ١٤١٨ [الجزء السابع ص١٥٦]) وتحتوي السورة على ١١٩ آية في جميع أنظمة الترقيم، وتنتهي بذكر هارون في الآية ٤٥. ولم أعثر على أيّ دليل قديم حول تقسيم الآية ٣٣ عند كلمة تأكلون، بالرغم من تعاطي فلوجال مع هذه الكلمة باعتبارها قافية.

(٢) توجد قوافٍ داخلية في آيات أخرى، مثل: ١١- يرثون، ٥٥- يحسبون، و٦٧- مستكبرين، و٧٠- يقولون، و٧٤- يؤمنون، و٨٥/ ٨٧/ ٨٩- يقولون. ولكن هذه الكلمات قريبة جدًّا من بداية الآيات كي يتم اعتبارها قوافي.

وليست جزءًا أساسيًّا من اللوحة الأولية لها. ورغم ذلك، وبسبب تكرارها مفتتحًا لكلّ تلاوة، ولمجرد أنها لها نفس قافية السورة[١] فإنها تعتبر جزءًا من مفتتحها. وكما سنرى فيما بعدُ، ففي خاتمة السورة صدًى مردِّدٌ للمفتتَح، متمثلٌ في آخر آية ونصف آية من اللوحة النهائية.

(١) وفقًا لغرض القافية، تعتبر المقاطع (-ين، و-يم، و-ون) متكافئة.

التقابل العكسي والتقويس في السورة:

تحتوي البسملة (آية ١) على اسمين من أسماء الله المشتقة من الفعل *(رَحِمَ)* وهما: *الرحمن والرحيم* (بمعنى: كثير الرحمة، وكُلِّي الرحمة). كما تحتوي الآية الأخيرة من السورة: ١١٨، على كلمتين مشتقّتين من الجذر نفسه (رحم): *(ارْحَمْ)* و*(الراحمين)*[١]. علاوة على ذلك، في حين أنّ البسملة تعدُّ صيغة توحي بالضرورة بأن الكلام التالي لها هو وحي من الله، فإنّ الآية ١١٨ أمر بالدعاء المنزل بوحي إلهي على النبي؛ وهكذا تكون الآية ١١٨ صدى للبسملة وتكشفًا بوجه آخر لها. كما توجد علاقة مماثلة للمذكورة سلفًا في الآيات الأولى وما قبل الأخيرة ١١٧. فهاتان الآيتان تذكران الفعل (أفلح)[٢] ولكن في الآية ١١٧ يأتي الفعل مسبوقًا بأداة نفي (لا). وبينما كلمة القافية والفاعل في الآية الأولى هو *(المؤمنون)* فإن كلمة القافية والفاعل في الآية ١١٧ هو المقابل الدلالي للكلمة: *(الكافرون)*. ويمكننا رصد تلك الملاحظات كما يأتي:

- أ (آية ١) بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(١) هنالك ٨ سور تنتهي الآية الأخيرة منها بإحدى مشتقات الجذر رحِم، مثل: [سورة ٢: ٢٨٦/ و٦: ١٦٥/ و١٢: ١١١/ و٢١: ١١٢/ و٣١: ٣٤/ و٧٣: ٢٠/ و٧٦: ٣١]. ولكن وحدها سورة المؤمنون ٢٣ تحمل آيتها الأخيرة كلمتين من الجذر ذاته.

(٢) تكرّر ذكر ذلك الفعل في القرآن أربعين مرة، ولكن ظهر في السورة مرتين فقط، في هذا الموضع وآية ١٠٢.

- ب (آية ١) أفلح المؤمنون.
- ب (آية ١١٧) لا يفلح الكافرون.
- أ (آية ١١٨) وقل... وارحم... الراحمين.

ووفقًا لذلك فإنّ العلاقة بين مفتتح وخاتمة السورة هي علاقة سيمترية متعاكسة أو (تقابل عكسي)[١]، حيث تتطابق (أ) مع (أ) وكذلك تتطابق (ب) مع (ب).

لأسباب مذكورة سلفًا، فإنّ الآية ٥٤ تمثّل نقطة تحوّل في السورة. وفي الآية كلمة: *(غمرة)* التي تترجَم إلى ترجمات مختلفة، إلى: (confusion حيرة)[٢] أو

(١) اختير هذا الاسم امتثالًا بالحرف اليوناني chi x. وبالنسبة إلى التقابل العكسي وظهوره في النصوص الكتابية والحديث، راجع ر. مينيه، و ن.بوزيه، و ن. فاروقي و أ. سنو في كتاب: (البلاغة السامية: نصوص من الكتاب المقدّس والأحاديث الإسلامية) (باريس: سير Cerf ١٩٩٨). وقد أقيمت بعض الأبحاث القليلة حول التقابل العكسي القرآني. وفي بحثه: (القصة القرآنية ليوسف: المؤامرة والسمات والشخوص – العالم المسلم (١٩٨٦ :LXXVI ,Connecticut ,Hartford) ص١: ١٥، بيّن مستنصر مير أن الحلقات السردية في سورة يوسف متراصّة بشكل تقابل عكسي.

وقد أكمل ميشيل كويبرس على نهج هذا التحليل في (التركيب البلاغي للقرآن: تحليل هيكلي لسورة يوسف ومجموعة أخرى من السور) (١٩٩٤ :XXII ,Cairo) *MIDEO* ص١٠٧: ١٩٥. وجادل روبنسون في (اكتشاف القرآن) ص١٤١: ١٤٢، وص١٥١: ١٥٢، وص٣١٢، أن سورة البروج ذات تركيب متقابل عكسيّ. وأن ذلك التقابل العكسي كان ظاهرًا في مقدمة وخاتمة سورة يس.

(٢) ريتشارد بيل، القرآن (إدنبرة: ت & ت كلارك، ١٩٣٧).

(perplexity التباس)[١] أو (error ضلال)[٢]. ومع ذلك، فوفقًا للزمخشري، فإن الكلمة حرفيًّا تعني: (تجاوز الماء قامة الرجل)؛ وهي مستخدمة مجازًا كي تشير إلى انغماس الكافرين في جهلهم وحمقهم، أو إلى أنهم في عبثهم كمثل الذين يلعبون في طوفان من الماء[٣]؛ لذلك رددتُ الكلمة إلى (*overwhelming confusion* حيرة غامرة). تظهر تلك الكلمة التي لم تذكر في القرآن[٤] غير ثلاث مرات –الكلمة مذكورة مرة أخرى في سورة الذاريات: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)} – مرة أخرى في الآية ٦٣. هاتان الآيتان ٥٤ و٦٣ هما الأولى والأخيرة في سلسلة عشرية ممتدّة في المركز العددي للسورة. وهذا المفصل المركزي يتكون من تقابل عكسي خماسي الأجزاء:

أ ٥٤ – {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}.

---

(١) آرثر آربري، تفسير القرآن (أكسفورد OUP ١٩٦٤).

(٢) محمد مارمادوك بكتال: معاني القرآن الكريم (نيويورك: Mentor n.d.)، محمد تقي الدين الهلالي، ومحمد محسن خان: تفسير معاني القرآن باللغة الإنجليزية (الرياض: مكتبة دار السلام ١٩٩٣).

(٣) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (بيروت: دار الفكر N.D.) المجلد الثالث ص٣٤.

(٤) مقارنة: سورة الذاريات: ١١، وتظهر الكلمة بصيغة الجمع في [سورة الأنعام: ٩٣] بمعنى: سكرات الموت.

ب ٥٥- {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ}.

ج ٥٦- {نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ}.

د ٥٧- {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ}.

هـ ٥٨- {وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}.

*هـ ٥٩- {وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ}.

*د ٦٠- {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}.

*ج ٦١- {أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}.

*ب ٦٢- {وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}.

*أ ٦٣- {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ}.

تتوازى الآية (أ) مع الآية (*أ) بسبب كلمة: {غَمْرَة}. وتستخدم الآيتان (ب) و(*ب) تشبيهات مكانية متماثلة {نمدهم} و{وسعها}. وتشترك كذلك الآيتان (ج) و(*ج) في أصلين معجميين: {يسارعون، نسارع} و{الخيرات}. كما تشير كلّ من (د) و(*د) إلى خوف المؤمنين ولكن بمفردات مختلفة. وأخيرًا، تقدم الآيتان (هـ) و(*هـ) الواقعتان في منتصف السورة، اثنين من أهم

الموضوعات المطروحة في السورة، وهما: الإيمان، وتجنب الشرك بالتبعية.

وقد نُوِّه بالإيمان في الآية الأولى من السورة بعد البسملة:

١- {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}.

٥٨- {وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}.

كما نوّه بالشرك في الآية ١١٧، وهي الآية السابقة على الخاتمة الليتورجية:

٥٩- {وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ}.

١١٧- {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}.

وبرغم أن أوجه الشبه البنائية فيما بين اللوحة الأولية في بداية السورة والمفصل المركزي لها أقلّ وضوحًا، إلا أنهما يُظهِران تشابهًا:

أ ١- {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}.

ب ٢- {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}.

ج ٣- {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}.

د ٤- {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}.

د* ٥: ٧ {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}.

ج* ٨- {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}.

ب* ٩- {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}.

أ* ١٠: ١١ {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

الآية (أ) تشير إلى فلاح المؤمنين، بينما الآية (*أ) تشرح ما يضمنه ذلك الفلاح. والآيتان (ب) و(*ب) تشيران إلى الصلاة، أمّا (ج) و(*ج) فكلّ منهما مقابلة للأخرى[١]، وبينما تشير (د) إلى الزكاة التي تطهر فاعلها، فالآية (*د) تشير إلى إحصان العلاقات الجنسية[٢].

لا يبدو أن اللوحة النهائية للسورة تعرض تقابلًا عكسيًّا. وعلى نحوٍ ما فهي مفرغة مثل القسم الثاني؛ فقد تألفت من مجرد التكرار لنفس الدعاء كما هو واضح في الآيتين: ١٠٩ و١١٨، وبالتالي تشكِّل كلتا الآيتين (تقويسًا):

١٠٩- {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}.

١١٨- {وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}.

---

(١) راجع الآية ٢٢٥ من سورة البقرة لمعرفة الرابط بين اللغو والأيمان.

(٢) لاحظ سيد قطب [في كتابه (في ظلال القرآن) الجزء الرابع، ص٢٤٥٥، بيروت: دار الشروق ١٩٩٢/ ١٤١٢] الرابطَ بين هاتين الآيتين المتجاورتين. ومن رأيه: فالآيتان معنيتان بطهارة (القلب والمال) و(الروح والأسرة والمجتمع) على التوالي.

التماسك النصي فيما بين الآيات من ١ إلى ٥٣:

تبدأ السورة بالحرف *(قد)* متبوعًا بالفعل *(أفلح)* ثم الفاعل *(المؤمنون)*، وبرغم أنّ الفعل جاء في صيغة الماضي التام، غير أنّ التفسير يفيد بأن المؤمنين سيفلحون، أكثر مما يعني أنهم قد أفلحوا فعلًا[١]. ورغم ذلك فالأحداث التي تتبع *(ولقد)* في الآيات ١٢ و١٧ و٢٣ و٤٩ أحالت إلى أفعال حسمها الله في الماضي، فتخدم ربط القسم الأول من السورة باللوحة الأولية عن طريق صوغ رابط بين هذه السلسلة من الأفعال وبين فلاح المؤمنين بمشيئةٍ من الله.

تقدُّم كلمة: *(ولقد)* خَلْقَ اللهِ الإنسانَ، وخَلْقه السماوات السبع، وإرساله نوحًا، وإلقاءه الكتاب على موسى؛ لذلك علينا أن نكون حذرين من وضع تمييز شديد ومتعجّل بين (الآيات/ العلامات) في الآيتين من ١٢ إلى ٢٢، وبين قصص الأنبياء في الآيات من ٢٣ إلى ٥٣. وهناك سببان آخران لذلك الحذر:

أولًا: أن الفعل أنشأنا في الموضع الأول يُحدِث ربطًا بين مجموعتي الآيات. ففي الآية ١٤ يقول الله عن خلقِهِ الإنسان: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}، ثم يتكرر في الآية ١٩ في قوله: {فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ}، وفي الآيتين ٣١ و٤٢ في قوله: {ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ}.

(١) الزمخشري، الكشاف، المجلد الثالث، ص٢٥.

ثانيًا: فإن القارئ المطّلع على القرآن سيصنف الآيات في المقطع المكوّن من الآيات ١٢: ٢٢ كمقطع من آيات/ علامات[١] رغم أن الكلمة (آية) لا ترِد في المقطع. ومع ذلك تظهر الكلمة (آية) ثلاث مرات في الآيات من ٢٣ إلى ٥٣، مرتين بصيغة الجمع، وواحدة مفردة:

٣٠: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ...}.

٤٥: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا...}.

٥٠: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً...}.

ولكي يفهم المرء لماذا تُتبع اللوحة الأولية -الآيات من ١ إلى ١١- بقصة خلق الإنسان -الآيات من ١٢ إلى ١٦- عليه أن يكون على دراية باستخدام القرآن كلمة *(فردوس)* في الآية ١١، الموثق في مكان آخر وحيد؛ آية ١٠٧ من سورة الكهف ١٨ بمعنى المسكن الذي يجازَى به المؤمنون الذين عملوا الصالحات في الآخرة، مسكن عادة ما يشير إليه القرآن بكل بساطة باسم *الجنة*[٢]. وبرغم غياب الإشارة إلى أنّ الإنسان الأول قد عاش في (الجنة) إلى أنْ طرَدَهُ الله منها، فذلك مذكور بوضوح في سور أخرى[٣]. وبناء على ذلك،

(١) روبنسون، اكتشاف القرآن، ص١٠٩: ١١٢.

(٢) مثال: سورة البقرة ٨٢ و١١١.

(٣) سورة البقرة ٣٥، سورة الأعراف ١٩: ٢٤، طه ١١٧: ١٢٣.

يكون أمر الجمع بين الإشارة إلى الفردوس ومسألة خَلْق الإنسان أمرًا طبيعيًّا تمامًا. كذلك كثير من المفردات المستخدمة في مسألة الخلق هذه، تتكرّر في مواضع قرآنية أخرى؛ عندما يكون البعث في موضع تساؤل. مثلما هو الحال مع، *النطفة* (القطرة من المنيّ)[١]، *والعلقة* (قطعة من الدم الغليظ الجامد)[٢]، *والمضغة*[٣]، *والعظام*[٤]، *والكساء*[٥]؛ لذلك لا يكون أمرًا مفاجئًا أن تتصل هذه المسألة بالموت والبعث، وبالتالي تأخذنا مجددًا بشكلٍ ضمني إلى فكرة الجنة كميراث للمؤمنين.

من منظور قرآني، يمثّل الأنبياء الذين ذُكِروا لاحقًا في السورة النمط المثالي للمؤمنين، وبناء على ذلك قد نستنتج أنهم يمثلون الصفات المدرجة في اللوحة الأوليّة للسورة، ويتضح ذلك الربط بين اللوحة الأولية وأولئك الأنبياء بالنسبة لأيّ مطلع على الروايات القرآنية الأخرى لقصصهم. فقد استغفر نوح -المذكورة

(١) تحديدًا في سور الحج ٥، يس ٧٧: ٧٩، والنجم ٤٤: ٤٧، والقيامة ٣٦: ٤٠، وعبس ١٨: ٢٢.

(٢) سورة الحج ٥، سورة القيامة ٣٨.

(٣) سورة الحج ٥.

(٤) سورة البقرة ٢٥٩، سورة الإسراء ٤٩-٥٠، سورة الإسراء ٩٨، سورة المؤمنون ٢٣: ٨٢، سورة يس ٧٨-٧٩ ، سورة الصافات ١٦: ١٨، سورة الصافات ٥٣، سورة الواقعة ٤٧- ٥٠، سورة القيامة ٣، سورة النازعات ١١.

(٥) سورة البقرة ٢٥٩، مجددًا يظهر أمر كساء العظام لحمًا. لم تتكرر تلك اللفظة ثانية إلّا في سورة النساء ٥.

قصته أولًا- (للمؤمنين)[١]، والنبي الذي لم يُذكر اسمه في الآيات (٣١-٤٣) ربما يكون المبعوث في ثمود، قُدِّم في موضع آخر في القرآن بالآية: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}[٢]. ثم تذكر السورة بيانًا مختصرًا برسالة موسى وهارون في الآيات (٤٥-٤٩) بعد إشارة موجزة إلى إرسال مجموعة من الرسل في الآية (٤٤). وفي النسخة المسهبة لهذه القصة في (سورة طه ٢٠)، يأمر فرعون سحَرَته بتحدِّي موسى وأخيه، معلنًا فلاح من يفوز بهذا التحدي: {وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}[٣]، ولكن غلبهم موسى فألقوا بأنفسهم أرضًا سُجّدًا معلنين إيمانهم بربّ موسى وهارون[٤]. ختامًا، تحمل السورة ٢٣ إلماحة مختصرة عن عيسى وأمه مريم (آية ٥٠). ونعرف من السور الأخرى أن مريم تعدُّ مثالًا على العفة[٥]، وأن عيسى تكلم عن الصلاة والزكاة وهو لم يزل طفلًا في المهد[٦].

(١) سورة نوح ٢٨.

(٢) سورة الشمس ٩ مقارنة بسورة المؤمنون ١ و٤.

(٣) سورة طه ٦٤. أيضًا يظهر التعبير {قَدْ أَفْلَحَ} في سورتي المؤمنون ١ = والشمس ٩، الذي لم يتكرر مرة أخرى سوى في سورة الأعلى ١٤، حيث يقع في بداية سلسلة مختصرة من الفضائل.

(٤) سورة طه ٧٠.

(٥) {أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} سورة الأنبياء ٩١، وسورة التحريم ١٢، مقارنة بقوله: {لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} في سورة المؤمنون ٥.

(٦) سورة مريم ٣١.

كما ترتبط الحلقات السردية مع قصص خلق الإنسان (الآيات ١٢: ١٥) وعناية الله بخلقه (الآيات ١٦: ٢٢). ففي قصة نوح، يقابل إنزال الماء من السماء بأمر من الله وإغراق الآثمين الإحالة السابقة بإنزال الله {مَاءً بِقَدَرٍ}[١]. وفي واقعة الرسول الذي لم يُذكر اسمه، يعيدنا إنكار الملأ من قومه للبعث - برغم الترف الذي أغدقهم الله به، إلى الإشارة ليوم القيامة، وإلى إنعام الله عليهم بالطعام والشراب والأنعام[٢]. كذلك تستدعي الإشارة الموجزة إلى إرسال الله موسى بالآيات والسلطان، الخبر الأكثر تفصيلًا حول ندائه من جانب *الطور*[٣]، وبالتالي لها صدًى في الإشارة السابقة للشجرة الخارجة من *طور سيناء*[٤]. وبيان وبيان إيواء الله عيسى ومريم على ربوة آمنة وماء جارية: {قَرَارٍ وَمَعِينٍ} صدى لنسخة أكثر تفصيلًا لهذه القصة، إِذْ نعلم بأن الله مدّ مريم برُطَب وماء جارية وأمَرها أن تأكل وتشرب وتروِّح عن نفسها: {وَقَرِّي عَيْنًا}[٥]. كما يثير ذلك التشابه بين الخلق المعجز لعيسى وبين خلق الإنسان الأوّل[٦] عَبر تكراره

(١) سورة المؤمنون: المقابلة بين الآيتين ٢٧ و١٨.

(٢) سورة المؤمنون ٣٣: ٣٧، مقارنة بالآيات ١٥ و١٩: ٢١.

(٣) سورة المؤمنون ٤٥، مقارنة بسورة مريم ٥٢، وسورة طه ٨٠، وسورة القصص ٢٨ و٤٦.

(٤) سورة المؤمنون ٢٠.

(٥) سورة المؤمنون ٥٠، مقارنة بسورة مريم ٢٤: ٢٦. أشار كلاوز شيدل Claus Schedl إلى التشابه بين هذين المقطعين في كتابه محمد ويسوع (فيينا: هيردر ١٩٧٨)، ص٣٢٣.

(٦) سورة آل عمران ٥٩.

الحديث عن كيف وضع الله هذا الإنسان كقطرة منيٍّ في مستقَرٍّ آمِن (سورة المؤمنون: ٥٠- وَجَعَلْنَا... ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ، وفي السورة نفسها، ١٣- جَعَلْنَاهُ... فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)[١].

وترتبط الحلقات السردية المختلفة مع بعضها كما يتضح من تكرار كلمات مفتاحية وعبارات بأكملها في الآيات:

- {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (المؤمنون ٣٢)/ مقارنة بقوله: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} (٥٢).

- {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} (٢٤=٣٣ باختلاف بسيط في الترتيب اللفظي) {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} / مقارنة بقوله: {وَمَلَئِهِ} (٤٦).

- {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} (٢٤=٣٣) مقارنة بقوله: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} (٤٧).

- {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} (٢٦=٣٩).

- {نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (٢٨) = {فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (٤١).

- {ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} (٣١=٤٢).

---

(١) كلمة (قرار) المذكورة في الآيتين كلتيهما، ذكرت في ٧ مواضع أخرى فقط.

- {كَذَّبُوا} (٢٦ و٣٣ و٣٩ و٤٤ و٤٨)، {كَذِب} (٣٨).

- {ظَلَمُوا} (٢٧)، و{الظَّالِمِينَ} (٢٨ و٤١).

- {أَرْسَلْنَا} (٢٣ و٣٢ و٤٤ و٤٥)، و{رَسُول/ رُسُل} (٣٢ و٤٤ و٥١).

- {مُؤْمِنِينَ} (٣٨)، وقوله: {أَنُؤْمِنُ} (٤٧).

- {سَبَقَ} (٢٧)، و{تَسْبِقُ} (٤٣).

- {رَبّ} (٢٦ و٢٩ و٣٩ و٥٢).

- {آيَة/ آيَات} (٣٠ و٤٥ و٥٠).

خوطب الرسل في كلّ من الآيتين ٥١ و٥٢ وكأنهم قد بُعِثوا في الزمن نفسه. ويجادل بعض المفسّرين -مع علمهم ببعث كلّ منهم في زمن مختلف- بأنّ الآيات تخاطِب واحدًا من اثنين، هما: (محمد أو عيسى)، وأن صيغة الجمع لا تعدو كونها أسلوبًا بلاغيًّا[١]. ولكن يبدو أن ذلك الرأي غير مرجّح؛ ففي الآية ٥٤ خوطب محمدٌ بصيغة المفرد. وبالرغم من توجيه الخطاب لأولئك الأنبياء جماعةً واحدة ظاهريًّا، فلا تقع صعوبة على الإطلاق إذا فهمنا أن الآيات موجّهة إلى الذين عاصروا محمدًا؛ لإقناعهم بأن الرسالة في الأساس واحدة،

(١) تفسير الرازي، المجلد السادس، ص ١٩٨.

ولو اختلف المرسلون[١]. وقد عزّزت الآية ٥٣ هذه الفكرة فبرّأت الرسل من تفرقة الأمة أحزابًا؛ إذ وضّحَت أن مَن جاءوا من بعدهم هم مَن فعلوا.

الآن وبعد دراسة شبكة العلاقات المتبادلة فيما بين مختلف الأقسام الفرعية في الآيات من ١ إلى ٥٣، تتبقى لنا مناقشة الترتيب التسلسلي للمادة. تبدأ السورة بلوحة أولية للصفات السبع التي يتحلَّى بها ورثة الفردوس (الآيات ١: ١١)، متبوعة بسرد للمراحل السبع لخلقِ الله الإنسانَ الأول الذي طُرِد من الجنة (الآيات ١٢: ١٤). ونظرًا لانطباق المراحل السبع هذه على خلق البشر أجمعين، فيوجه حديثه للمتلقين خطابَه، مُعْلِمًا إياهم بأن المرحلة التالية هي موتهم جميعًا، ثم بعثهم مرة أخرى يوم القيامة (الآيات ١٥: ١٦). وبصورة طبيعية، تتبع سردية خلقِ الإنسان بسردية عناية الله بخلقهِ (الآيات ١٧: ٢٢)، فيلفت المتحدث الانتباه إلى سبعة عناصر، بدءًا بالطرائق السماوية السبع. العنصران الأخيران هما (الأنعام والفُلْك)، وهي وسائل التنقل الأساسية برًّا وبحرًا على التوالي. وبذكر *الفُلْك* تستحيل القائمة دائرة مكتملة؛ إِذْ ترتبط تلك الكلمة العربية بكلمة (فَلَك) أي: مدار الجرم السماوي[٢]؛ فضلًا عن أن الإشارة

---

(١) راجع ملاحظات رودي بارت في: Der Koran: Kommentar und Konkordanz (شتوتجارت، كولهامر ١٩٨٠)، ص٣٥٥.

(٢) راجع سورة الأنبياء ٣٣ وسورة يس ٤٠، حيث الإشارة إلى الأجرام السماوية السابحة في أفلاكها. تجادل Ilse Lichtenstadter أن هاتين الآيتين تعكسان اعتقاد الشرق الأدنى القديم حول جريان الشمس =

إلى الفُلك في الآية ٢٢ تقدِّم تلميحًا إلى قصة نوح (في الآيات ٢٣: ٣٠) حيث تتكرّر اللفظة مرة أخرى (الآية ٢٧). وفي سردية العناية الإلهية بالخلق، كان التركيز منصبًّا على إنزال الله الماءَ من السماء {بِقَدَرٍ}. ورغم ذلك، يتفجّر الماء في قصة نوح بأمرٍ من الله ويُغرِق الكافرين. يتبع ذلك وقائع أخرى بترتيب تعاقبي؛ بدءًا بحادثة الرسول غير المذكور اسمه (٣١: ٤١) وبعدها حادثة مجموعة من الرسل (الآيات ٤٢: ٤٤)، ثم حادثة موسى وهارون (الآيات ٤٥: ٤٩)، وأخيرًا حادثة عيسى ومريم (الآية ٧٠)؛ لذلك يكون لدينا إجمالًا خمس قصص. إذا عددنا موسى وهارون كُلًّا على حدة، واعتبرنا مجموعة الرسل غير المذكورة أسماؤهم وحدة واحدة، سنخلص إلى ستّ قصص -أقل من سبع بواحدة- ليكمل محمدٌ العدد.

=

والقمر في قارب؛ لذلك تقترح أن يكون نطق الكلمة فُلك بدلًا من فَلَك. I. Lichtenstadter في كتابها (أصل وتفسير بعض الرموز القرآنية) Studi orientalistici in onore di Giorgio Levi Della Vida Roma: Istituto per l'Oriente, vol. II: ١٩٥٦, pp. ٥٩-٨٠ esp. p. ٧٧.

وظيفة المفصل المركزي:

يعمل المفصل المركزي في السورة (الآيات ٥٤: ٦٣) على الانتقال من القسم الأول إلى القسم الثاني، إِذْ يعكس صدى الأول ويعلن عن موضوعات سيأتي تفصيلها في الثاني.

في الآية ٥٤ أُمِر الرسول أن يترك الكافرين {فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}. وكما سنرى لاحقًا، فإنها مفارقة ساخرة (irony) كبيرة؛ دعنا الآن نلاحظ فقط كيف ابتلع الطوفان المكذبين بنوحٍ الذين أَمَروا بمراقبته {حَتَّى حِينٍ}[١].

وتشير الآيتان ٥٥ و٥٦ إلى إمداد الله الكافرين بالمال والبنين، وبذلك نعود إلى بيانه في الآية ٣٣ بتحذير أولئك الذين أترفهم بخير متاع الدنيا.

وبإمكاننا الاستدلال من الفضائل المذكورة في الآيات ٥٧: ٦١ على أنها كانت مجسدة في حيوات المرسلين وتابعيهم، كما كانت الحال في الفضائل المذكورة في اللوحة الأولية. وذلك الاستدلال مدعوم بتكرار {رَبِّهِمْ} أربع مرات (في الآيات ٥٧ و٥٨ و٥٩ و٦٠)، مع أخذ الإشارات السابقة إلى الله عين الاعتبار في قوله: {رَبّ} (في الآيات ٢٦ و٢٩ و٣٩) وقوله: {رَبُّكُمْ} (في الآية ٥٢). وهنالك تشابه دقيق بين الكلمات في قوله: {*الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم*

(١) استخدم التعبير نفسه: {حَتَّى حِينٍ} في الآية ٢٥.

مُّشْفِقُونَ} (٥٧)، وبين إحدى آيات سورة الأنبياء، حيث أُشيرَ إلى الرسل، وبخاصة عيسى[١]. ويرجعنا التصريح بإيمانهم بآيات ربهم (آية ٥٨) إلى قسم الآيات/ العلامات (الآيات ١٢: ٢٢) ويتناول إشارات إلى آيات مذكورة بعينها في الحلقات السردية (الآيات ٣٠ و٤٥ و٥٠). ويشير أيضًا إلى التوكيد الأوليّ حول المؤمنين (آية ١) وإلى الإشارات اللاحقة إلى أولئك الذين كذبوا بالرسل (الآيات ٣٨ و٤٤). ويتفق البيان بعدم شركهم بربهم (آية ٥٩) مع الموقف التوحيدي للمرسلين (الآيات ٢٣ و٣٢)[٢]. ويشير القول: {الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} (٦٠)، إلى الزكاة التي أشير إليها في اللوحة الأُولى (الآية ٤)، وكذلك إلى الإشارة ليوم القيامة في قصة خلق الإنسان (آية ١٦). وذلك على العكس من موقف المكذبين برسالة نوح؛ لتخَوُّفهم أن تخامره رغبةٌ بالتفضُّل عليهم (الآية ٢٤)، وأيضًا المنكرين رسالة الرسول الذي جاء من بعده؛ كفرًا بالآخرة (الآيات ٣٣: ٣٧). وأخيرًا، فالتوكيد على أن جميع هؤلاء {سَابِقُونَ} يسارعون في الخيرات (آية ٦١)، يستدعي الإشارة إلى مَن

(١) قارن بين قوليه: {الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} سورة المؤمنون ٥٧، و{وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} في سورة الأنبياء ٢٨. في الأنبياء نزلت تلك الآية في أولئك الذين أشاروا للأنبياء على أنهم أبناء الله.

(٢) نوح والرسول المجهول الذي أتى من بعده. للاطلاع على الموقف التوحيدي لموسى وعيسى انظر الآيات ٩٨ من سورة طه، و ٧٢ من سورة المائدة على التوالي.

{سَبَقَ} عليهم القول من الكافرين في زمن نوح، في (الآية ٢٧)، والتحذير بأنّ ما من أمّة {تَسْبِقُ} أجَلَها (آية ٤٣).

يقابل تحذيرُ الله بامتلاكه كتابًا ينطق بالحقّ ووعدُه بعدم ظلم الكافرين (الآية ٦٢) =ظُلْمَ الكافرين (الآيات ٢٧ و٢٨ و٤١) واتهامَهم المرسلين بالكذب (الآيات ٢٦ و٣٣ و٣٨ و٣٩ و٤٤ و٤٨).

بالإضافة إلى ضم **المفصل المركزي** لأصداء متعددة من **القسم الأول**، فإنه يشير أيضًا إلى مسائل سيتم تناولها لاحقًا في **القسم الثاني**؛ فقوله: *{حَتَّى حِينٍ}* (آية ٥٤) يأتي متبوعًا بقوله: *{حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا}* (آية ٦٤). والإشارة إلى أهمية خطر الشرك بالله، الأمر المشار إليه في الآية ٥٩، أتى تفصيلًا في الآيات ٩١: ٩٢ و١١٦، واستُنكِر أخيرًا في الآية ١١٧. وقد وُصِفَ الرجوع إلى الله من أجل الحساب –المشار إليه في (الآية ٦٠) {إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}– تفصيلًا في (الآيات ٩٩: ١١٥). بادئًا هذا الوصف بالسخرية من رجاء الكافر بالرجوع إلى الحياة الدنيا {رَبِّ ارْجِعُونِ} (٩٩)، ومنتهيًا بسؤال الله الكافرين جماعة إذا ما كانوا يحسبون أنه لن يرجعهم {إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (١١٥). والإشارة إلى عدم تكليف الله نفسًا إلا وسعها في (الآية ٦٢)، تمهد الطريق إلى الحديث عن هؤلاء الذين سيفقدون أرواحهم لأن موازينهم ستخفّ، في (الآية ١٠٣). وأخيرًا، تقدم الإشارة إلى الكتاب الناطق {بِالْحَقِّ} في (الآية ٦٢)، فكرة مهيمنة ذات أهمية قصوى تكررها الآيات (٧٠ و٧١ و٩٠ و١١٦).

التماسك النصي بين (الآيات ٦٤: ١١٨)، وعلاقتها بـ(الآيات ١: ٥٣):

في القسم الثاني للسورة ولوحتها النهائية، يتنقل المشهد ذهابًا وإيابًا بين حديث الآخرة والسياق الجدالي الحالي. يبلغ القسم المتعلق بالإيمان الآخروي (الآيات ٦٤: ٦٧) ذروته باستخدام الارتجاع flash back (في الآيات ٦٦: ٦٧)، يتلاشى ذلك في مجادلة طويلة (الآيات ٦٨: ١٠٠) متضمنة المجادلة بالآيات/ العلامات (الآيات ٧٨: ٨٠)، وسجال قوي (الآيات ٨١: ٨٩)، كما تم إدغام فصل كان فيه الرسول هو المخاطَب الوحيد (الآيات ٩٣: ٩٨). وتوفّر الإشارات الجدالية إلى الموت *والبرزخ* (الآيات ٩٩: ١٠٠) تلميحًا إلى قسم أخروي ثانٍ (الآيات ١٠١: ١١٥)، وذلك يتضمن ارتجاعًا (الآيات ١٠٩: ١١٠) يشكّل بداية اللوحة النهائية. وتنتهي السورة بتسبيح مؤكد للوحدانية الإلهية (الآية ١١٦)، وإدانة جدالية لأولئك الذين أشركوا بالله إلهًا آخرَ (آية ١١٧)، وفي (الآية ١١٨) أمر ختامي للمرسلين بالاستغفار والاسترحام، وهو مقتبَس من الآية (١٠٩).

وبرغم بساطة بناء القسم الثاني من السورة مقارَنةً بالأول، فإنه يعرض ترتيب الفاعلين ذاته: (الله، المرسلون، المؤمنون وغير المؤمنين). الفارق الوحيد هو تركز القسم الثاني على محمدٍ ومَن عاصروه، بينما ركّز القسم الأول أساسًا على المرسلين السابقين ومَن أُرسِلُوا فيهم.

عُرِّف الله في القسمين الأول والثاني باعتباره الإله الواحد (الآيات ٩١: ٩٢، و١١٦: ١١٧، مقابل الآيات ٢٣: ٣٢)، والخالق (الآيات ٧٨: ٨٠، و١١٥، مقابل الآيات ١٢: ١٤)، وكُلِّي القدرة (الآية ٩٥، مقابل الآية ١٨)[١]، ورب السماوات السبع (الآية ٨٦، مقابل الآية ١٧)، الرازق خلقه (الآية ٧٢، مقابل الآيات ١٨: ٢٢)، ومرسل النبيين فيهم (الآية ٦٩، مقابل الآيات ٢٣ و٣٢ و٤٤)، وواعدهم بالبعث من بعد الموت (الآيات ٨٢: ٨٣، مقابل الآيات ١٦، و٣٣: ٣٥)، وممددهم بالآيات (الآيات ٦٦ و٧٨: ٨٠، مقابل الآيات ١٦، ٣٣: ٣٥)، ومنزل الوحي (الآية ٧١، مقابل الآيات ٢٧ و٤٩)، ومعذب الظالمين (الآيات ٦٤ و٧٦: ٧٧، مقابل الآيات ٢٧ و٤١ و٤٤).

في القسم الثاني من السورة، يخاطِب محمدٌ اللهَ في الآيات بلفظة: {رَبِّ}، كما خاطبه المرسلون المشار إليهم في القسم الأول (الآيات ١١٨، مقابل الآيات ٢٦ و٢٩ و٣٩). وكما هو الحال معهم، فقد أُمِر بقول كلمات محددة في مواقف بعينها (الآيات ٨٤: ٨٩ و٩٣: ٩٤ و١١٨، مقابل الآيات ٢٨: ٢٩)، وكذلك مثلهم يسأل قومه: {أَفَلَا تَتَّقُونَ} (الآية ٨٧، مقابل الآيات ٢٣ و٣٢).

تبدأ الصورة الأولية للسورة بالتأكيد على (فلاح) المؤمنين وبرصد مآثرهم المميزة (الآيات ١: ١٩). ويشير القسم الثاني إلى ميزان الأعمال يوم القيامة،

(١) قوله: {وَإِنَّا عَلَى... لَقَادِرُونَ} في المثالين كليهما.

مؤكدًا على (فلاح) مَن ثقلَت موازينهم (آية ١٠٢) وعلى (خسارة) من خفَّت موازينهم (آية ١٠٣). وهذه مفارقة ساخرة كبيرة نظرًا للإشارة السابقة لتحذير الكافرين قومَهم من (الخسارة) إذا أطاعوا بشرًا فانيًا مِثْلَهم (آية ٣٤). فالخاسرون الحقيقون سوف (يخلدون) في النار (آية ١٠٣)، بينما المؤمنون سوف (يخلدون) في الفردوس (آية ١١).

تتشابه أوصاف الكافرين المذكورة في القسم الثاني مع تلك المذكورة في القسم الأول بأنهم قوم ظالمون: {الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (آية ٩٤)، مقابل الآيات (٢٨ و٤١)، وأنهم قوم يستكبرون: {مُسْتَكْبِرِينَ} (آية ٦٧)، مقابل (الآية ٤٦): {فَاسْتَكْبَرُوا}، واتهامهم الرسول بالجنون: {بِهِ جِنَّةٌ} (آية٧٠) مقابل (آية ٢٥)، وكذبهم واتهامهم الرسول بالكذب: {لَكَاذِبُونَ} (آية ٩٠) مقابل كذَّبوا في (الآيات ٢٦ و٣٣ و٣٩ و٤٤ و٤٨)، وإنكارهم ما لم ينزل على: {آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} في (الآية ٦٨) مقابل {آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} في (الآية٢٤)، وسخريتهم من الوعد بالبعث من بعد أن يصبحوا: {تُرَابًا وَعِظَامًا} (الآيات ٨٢: ٨٣ مقابل الآيات ٣٦: ٣٧). بالإضافة إلى إعراضهم عن الذِّكر: {فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} (آية ٧١)، على عكس المؤمنين المعرضين عن اللغو: {هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} (آية ٣).

تشير ثلاث من الحلقات السردية في القسم الأول إلى دور عِلْيَة القوم: {الْمَلَأُ} (الآيات ٢٤ و٣٣ و٤٦) في إشعال جذوة الكفر. وبالتأكيد فإن ذلك

يعكس الوضع في زمن محمد، ولكن لا يوجد ذِكر صريح لأولئك {الْمَلَأ} في القسم الثاني، برغم احتمال الإشارة إليهم بوصفهم المترَفِين بمتاع الحياة: {مُتْرَفِيهِمْ} (آية ٦٤) مقابل: {الْمَلَأُ... وَأَتْرَفْنَاهُمْ} (آية ٣٣)[١]. كما أننا نعلم من سورٍ أخرى عن اعتراض المكذبين بمحمد على كونه بشرًا فانيًا يحتاج أن يأكل وأن يشرب (سورة الفرقان ٧) وأنْ لو شاء الله لأرسل رسالته مع الملائكة (سورة الفرقان آية ٧، سورة الأنعام آية ٨)؛ لذلك فالاعتراضات المنسوبة للملأ في القسم الأول (آيات ٣٣، ٢٤) ليست صُدفة.

يشير القسم الثاني إلى زعم الكافرين بأن الله قد اتخذ ولدًا (الآية ٩١)، ومن المرجّح أنّ تلك هي العقيدة المسيحية التي صورت لهم في هذه المرحلة، بالرغم من عدم وجود موازٍ دقيق في القسم الأول، فقد تم التمهيد لما قيل حول عيسى بالإشارة إليه ابنًا لمريم، وكان ذِكره مع ذكر أُمّه بمثابة الإشارة، وأنه واحد من المرسَلين الذين أُمِروا بأكل الطيّبات وطاعة إلههم (الآيات ٥٠ و٥١)[٢].

ويمكن للإشارات العديدة للعقاب الإلهي في السورة أن توفِّر مفتاحًا إضافيًّا لبناء السورة؛ فيشير الجزء الأول إلى الماضي الذي دمَّر الله فيه الكافرين بنوح غرقًا في الطوفان (آية ٢٧)، وأولئك الذين كفروا بالنبي الذي جاء من بعد نوحٍ،

(١) ورد الجذر (ترف) ٨ مرات فقط في القرآن الكريم.

(٢) للتأكيد على كون عيسى بشرًا يأكل الطعام انظر الآية ٧٥ من سورة المائدة.

الذين أخذتهم الصيحة وتركتهم مثل (الغُثاء) (آية ٤١)، والغُثاء هو السواد مِن خلف الغصون والأوراق الناتجة عن السَّيْل[١]. ولكن لم يحدِّد العقاب الذي أرسله على القرون التالية (آية ٤٤)، ولم يُعطِ تفاصيلَ عن هلاك فرعون وملئِه (آية ٤٨)، ولكننا نعرف من مواضع أخرى أنه أغرقهم وقت مُلاحقتهم بني إسرائيل[٢].

يحذِّر الله في القسم الثاني من عقابه الكافرين المكذبين بمحمد في الآخرة (الآيات ١٠٣: ١٠٤، و١٠٨). الأمر الأقل وضوحًا هنا هو: كيف وإلى أيّ حدٍّ قد عذَّبهم قبل ذلك؟ وهو ما يعتمد على تفسير الآيات ٦٤: ٦٥، والآيات ٧٥: ٧٧.

قد تشير الآيات ٦٤: ٦٥ إذا تناولناها بمعزل، إلى عقوبةٍ وقعَت بالفعل، أو إلى عقوبة حالية، أو إلى عقوبة مستقبلية. ورغم ذلك، فهذه الآيات تتبع المفصل المركزي (الآيات ٥٤: ٦٣) مباشرة. يعيدنا وجود كلمة: {غَمْرَة} في الآية السابقة إلى ظهورها المتقدم في الآية ٥٤، ويدعم تعاطينا مع الآيات ٥٥: ٦٣ كجملة معترضة. {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ... حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا...}

(١) الزمخشري، الكشاف، المجلد الثالث، ص٣٢، حيث يذكر بيتًا من شعر امرئ القيس. ذُكِرَت هذه الكلمة مرتين فقط في القرآن، في ذلك الموضع وفي الآية الخامسة من سورة الأعلى.

(٢) انظر في سورة البقرة ٥٠، وسورة الأنفال ٥٤، وسورة الإسراء ١٠٣، والقصة التوراتية في سفر الخروج ٤- ٢١: ٣٠.

(الآيات ٥٤: ٦٤). وعليه فتكون تلك إشارة أكيدة إلى العقوبة المستقبلية الأخروية.

وتعدُّ الآيات ٧٥: ٧٧ أكثر إشكالًا، فإذا كان تفسيرنا للآيات ٦٤: ٦٥ صحيحًا، فمحتمل أن الآية ٧٥ أيضًا تشير إلى العقوبة الأخروية. وما نفهمه ضمنيًّا، هو أن معاصري محمد أصبحوا معاندين ومتمردين، حتى إنهم سيعصون الله لو أمرهم في المستقبل بالخروج من النار[١]. ومع ذلك، فيبدو أن هنالك إشارة إلى عقوبة مختلفة في الآية ٧٦، عقوبة كانت قد فُرِضَت ماضيًا؛ فوق ذلك، فافتتاح الآية بـ{وَلَقَدْ} متبوعة بفعل في صيغة الجمع، يشير إلى أمرٍ جَلَل، كتكملة مناسبة للصنيع الإلهي المفتتح بـ{وَلَقَدْ} في القسم الأول (الآيات ١٢ و١٧ و١٩ و٢٣ و٤٩). ويعدُّ فوز مسلمي مكة في بدر هو المرشح لهذه العقوبة المحلّة على الكافرين كما اعتبرها الرازي، بغضّ الطرف عن حقيقة أنّ مِثْل هذا الاقتراح يتطلب الارتباط بالتاريخ المدني[٢]. بالنسبة للمجتمع المسلم الوليد، فقد كان انتصار بدر مكافئًا لغرق فرعون وجيشه في زمان موسى، فكلتاهما وقعت في البحر الأحمر وأيضًا تضمنتا العقوبة الإلهية للطغاة، ونجاة المسلمين.

(١) هذا هو الاحتمال الثالث من الاحتمالات التي طرحها الرازي في تفسيره، المجلد السادس، ص٢٠٣.

(٢) تفسير الرازي المجلد السادس، ص٢٠٤. وللدليل على اعتبار غزوة بدر حدثًا حاسمًا في تاريخ الخلاص الإسلامي، راجع اكتشاف القرآن لنيل روبنسون، ص٤٠ و٢٣٠: ٢٣٢.

الآن نحن بصدد الآية ٧٧، التي تشير إلى فتح الله باب العذاب الشديد عليهم، فإذا بهم يائسون فيه: {فِيهِ مُبْلِسُونَ}. ولا بد أن تلك إشارة إلى أمر وقع بعد غزوة بدر، أو سيقع مستقبَلًا، وذلك أشد رعبًا. وقدّم الرازي احتمالين: إما أن تكون هذه العقوبة هي تجربتهم الواقعة للمجاعة وهي الأصعب من القتل أو الأسر، أو العقاب المنتظر في نار جهنم[١]. وفي حال تأييد الاحتمال الثاني، فربما علينا الاستشهاد بسورة الزخرف: آية ٧٥، حيث هي المثال الوحيد الآخر الذي حوى التعبير: {فِيهِ مُبْلِسُونَ}، وسورة الروم آية ١٢ في قوله: {*وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ...*}. وعلى صعيد آخر، تشير الآية السادسة من سورة الأنعام إلى فتح الله أبوابه لهم فيما مضى، وفي سورة الروم آية ٤٩ يشير إلى يأس عباده: {لَمُبْلِسِينَ}، قبل أن ينزل عليهم من السماء مطرًا[٢]. وبافتراضنا أن السورة قد اتخذت شكلها النهائي في وقت الجفاف، ستتضح بعض الأمور بما فيها التأكيد على إنزال الله من السماء ماءً ليوفّر لخلقه المطعم والمشرب (الآيات ١٨: ٢١)، الإنذار بحقيقة أنه مع كونه مَن أسكَنَ هذا الماءَ الأرضَ فإنه قادر على

(١) تفسير الرازي المجلد السادس، ص٢٠٤.

(٢) لاحظ الحديث الذي أورده الرازي، برغم ارتباطه بمناسبة نزول الآية ٧٦ أكثر من الآية ٧٧: «أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منَع الميرة عن أهل مكة، فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجِيَف، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وقال: ألستَ تزعم أنك بُعِثتَ رحمة للعالمين، ثم قتلتَ الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادعُ الله يكشف عنا هذا القحط. فدعا فكشف عنهم؛ فأنزل الله هذه الآية، والمعنى: أخذناهم بالجوع فما أطاعوا». الرازي، التفسير الكبير المجلد السادس، ص٢٠٤.

الذهاب به (الآية ١٨)، القول بحاجة الرسول إلى الطعام والشراب مثل أيّ فانٍ في (الآية ٣٣)، الإشارة إلى إمداد مريم وابنها نبعًا (آية ٥٠)، أَمْره المرسلين أن يأكلوا ويشربوا من الطيبات (آية ٥١). بالإضافة إلى ذلك، فهنالك مفارقة ساخرة مناسبة في الإشارة إلى عقاب أمم سابقة غرقًا في طوفان من الماء (الآيات ٢٧، ٤٨)، أو الذين جُعِلوا كحطامٍ مُلْقًى على ضفاف النهر (آية ٤١). وأخيرًا، فالإشارة إلى *(الغمرة-* الحيرة الغامرة) في نهايتي المفصل المركزي سوف تؤخذ كمفارقة ساخرة إضافية.